نوور عيني

المحاضرة الثانية عشر

قيم العلم والنموذج الغربي

اولاً : القيم الاجتماعية ومحاكاة نموذج الآخر

تعد القيم مفاهيم جوهرية هامة في جميع ميادين الحياة، وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صورها لأنها في حقيقتها ضرورة اجتماعية تنطوي على معايير تحقق أهدافاً معينة واضحة لا يخلو منها أي مجتمع منظم سواء كان متخلفاً أم متقدماً.

وعليه لا بد من تحليل الثقافة على أنها متصلة بالواقع ومنبثقة عنه، فلا يمكن دراستها بمعزل عن بعضها البعض ولا بمعزل عن مقوماتها المادية والاجتماعية والاقتصادية.

وهنا نؤكد على العلاقة القائمة بين الثقافة ومقوماتها وعناصرها وما اشتملت عليه من قيم مستمدة مباشرة من أنماط وسلوكيات معيشية واقعية وبين المجتمعات المقصودة وهي المجتمعات العربية والتي يمكن صياغتها في نموذج قيمي على الوجه التالي:

- قيم بدوية وريفية من تفاعل البدو وأهل القرى مع بيئاتهم فترسخت لديهم قيم العصبية.
- قيم حضرية ارتبطت ارتباطاً مباشراً بنمط المعيشة في المدينة وهي قيم تنزع نحو النجاح والطموح.

وهذه التغيرات والمستجدات في القيم لا يمكن فهمها على حد قول الانثروبولوجيين الا اذا ردت الى عناصرها الأولية المكونة للثقافة العربية خصوصيتها في القيم ومفاهيمها، والثقافة وعناصرها، الا ان اهم ما تميزت به الذات العربية والمشكلة لبنائها الاجتماعي الكلي الاصيل بدلا من اللهث وراء التفسيرات التي تربط النتائج بالعلاقات مع الثقافات الاخرى.

واذا كان للذات خصوصا في الآونة الأخيرة هو ازمة الفكر والثنائية التي تواجه العقل العربي .

ورغم ذلك فأن الاستفهام دائم التكرار والطرح في كثير من المقالات والندوات والدراسات، وهو لماذا توقف العقل العربي عن الاسهام الفعال في الثروات الصناعية والعلمية والتكنولوجية التي انطلقت خلال القرون الثلاثة الأخيرة؟

وتكتفي داما بالحديث عن امجادها القديمة دون تجديد لتلك الامجاد ؟ ومع ذالك تتخذ لنفسها في اطار ثنائية الفكر القائمة على التفضيل لا المقارنة مع الاخر صورا دفاعيه متعددة.

لكن قضية الذات العربية وموقفها من العلم الحديث، كيف تجعل العلم وتنظر اليه ؟وتستخدمه على انه قوه انتاجيه كما فعل الغرب في نظرته الى قيم العلم.

بينما وجدنا انفسنا مستخدمين للعلم واداوته فقط في القضاء على الجهل والأميه، دون ان نجهد انفسنا عناء الخروج من دائرة الثنائية الخاصة بالجهل والعلم.

فـ نظرنا الى العلم على انه نور وان دوره التنويري هو فك رموز الأبجدية وطلاسمها وهكذا تمحور ادراكنا للتعليم في قيم الاستخدام لا في قيم الابداع والابتكار والإضافة.

ورغم ذالك كان لابد ان تضع الذات العربية قضيه العلم في جل اهتمامها مع تقديرنا ان تحقيق وانجاز هذا الاهتمام كمهمه كبيره يتطلب شروطا اجتماعيه وسياسيه وتنظيميه وجذريه، ولاسيما ان تكنولوجية العلم بطبيعتها محمله بالقيم وفاء لمطلب اجتماعي تولد في ظروف تاريخيه معينه يمر بها المجتمع المنتج

ان مرحلة الاتصال والانفتاح على المجتمع المدني بدأت من الحملة الفرنسية على مصر في أواخر القرن الثامن عشر مرورا بمرحلة النهضة واليقظة عهد محمد علي.

كانت مصر هي النموذج الرائد في تحديد القيم بما فيها العلم وأدواته ولما لها من تأثر على غيرها من المجتمعات العربية.

ساعدت النهضة العربية التي ارتبطت بتأسيس الدولة الحديثة في مصر على ظهور نموذج غير تقليدي من رجل الدين(رفاعه الطهطاوي 1801-1873م) الذي غدا مستعدا لمواكبة حركة الدولة الحديثة في خروجها على المفهوم التقليدي القديم للحكم ، وتأسيسها معنى المواطنة الذي يتخذ الدولة المدنية الأوروبية مثالا له في الحقوق الواجبات وواكب ظهور الشيخ :

1-تحديث أنظمة التعليم وعلاقات المثاقفة ووسائل إنتاج المعرفة وتوزيعها وكان حضوره عنصرا فاعلا في أفق متغير من العلاقة بالآخر في المستويات الثقافية والاجتماعية والسياسية.

فقد كان كتاب (تخليص الإبريز) استهلالا لمقدمات تغيير الحكم في عهد محمد علي وبدايات افق الشورى الحديثة.

2- ألف مجلس اسماه المجلس العالي.

3- أصدر قانون سياستنامة عام 1873م وضمنه نظام الحكم في البلاد مجاراة منه لأنظمة الدولة الحديثة في أوروبا .

تنطوي دلالات الكتاب على كشف علاقة نموذج الذات (بالآخر) المغاير في الثقافة والقيم من ناحية وتقليل مفهوم المجتمع المدني الحديث عن هذا (الآخر) من ناحية أخرى .

هكذا انفتح السبيل في كتابات الطهطاوي إلى أفكار المجتمع المدني ليس بوصفه نقيضا للدين ،وإنما بوصفه مجتمع المؤسسات القانونية ..ومن هذا المنطلق تقبل رفاعه معنى الدستور ،فنظر إليه على أنه تعاقد مدني يتحقق في كل أمة لها طابع النظام والإستقرار .

ثانياً : قيم العلم والنموذج الغربي

العلم الحديث النامي في أوربا ما هو سوى (طريقة وأسلوب) أي أسلوب التفكير المنظم والمنتظم وأدوات من طرائق البحث العقلي المرتب استنادا إلى عالم محسوس .
* إن النموذج القيمي للتعليم العام في القراءة والكتابة وقيم الحرية والديموقراطية وحق التصويت ماهي إلا أفكار أوربية قد أصبحت لدى الشرق بمبادئها الثابتة التي يؤمن بها الشرقيون وإيمانهم بل أكثر من إيمانهم بمبادئ الأديان ، وانه من السهل أن تقنع شرقياً بأن تدينه فاسد ولكن ليس من السهل أن تقنعه بأن الديمقراطية أكذوبة .
* والحضارة الأوربية ليست كما يقال عنها مسرفة في المادية لا اتصال بينها وبين الروح كما يصورها غيرها تكون مصدراً للشر والشقاء الذي لا يصيب أوربا والعالم الغربي فقط بل يشقى به العالم كله ، والحضارة الأوربية الحديثة عظيمة الحظ من المادية ولكن أنها قليلة الحظ من المعاني السامية التي تغزو الأرواح والقلوب وهذه الحضارة هي نتاج العقل والخيال وممزوجة بالروح الدافعة إلى التفكير المؤدي إلى الإنتاج .

وقد يختلف الأوروبيون منهم مسيحيون في ظاهر أمرهم لكن مسيحيتهم ألوان ومذاهب ومع ذلك لم يمنعهم اختلافهم المذهبي من أن يتفقوا في الحضارة ومنهم من لا يتخذون المسيحية ديناً ومنهم من لادين له
وهذا كله لا يمنع من الاتفاق حول الحضارة والعلم والحضارة الأوربية لم تسلم من الصراع والخصومة مع المسيحية الأوربية ولكنها في نهاية الأمر انتهت بالتوازن بين الدين والحضارة .
* العلم هو مكونات الثقافة ، فإن من عناصر الثقافة ما هو شائع مشترك بطبيعته وماهو خاص وذاتي بطبيعته
وأن النموذج الغرب في التعليم وأدواته لايزال شغلنا في الاقتباس والاقتداء وتلمس الطريق إلى المحاكاة وتلك المحاكاة لم تكن قاصره على الأدوات المنهجية والفنية بل امتدت إلى الشكل قبل أن تلم بالجوهر.

إن الهندسية التعليم في مصر والتي تأسست على غرار النظام الأوربي والتي قادها رائد التحديث في مصر على مبارك والتي ضمنها في وثيقته وعرفت باسم لائحة رجب والتي أصدرت في 10 من رجب وتشكلت من أربعين مادة في ثلاثة أقسام وحاولت نقل المدرسة الحديثة بنظامها الأوربي لي المدن الصغيرة والقرى المصرية ولم تترك هذا اللائحة مايخص التعليم والسياسة التعليمة حتى توحيد الزى المدرسي وقد اهتمت بالمناهج وكتب وأعداد الطلاب وتوزيعهم على التخصصات المختلفة وذكرى على مبارك كل ذلك برؤيته إلى أهل مصر بأنهم كغيرهم من الأمم الأوروبية

وإذا كان حديثنا حول التعليم وقيمة العلم منصبا على حلة المجتمع المصري وان مصر هي التي ارتادت هذا المجال فأخذت المبادرة والخطوة الأولي نحو الاتصال بالغربي ثم انتقل إلي جميع الدول العربية في ظروف مختلفة وإذا مازال بصدد محاكاة النموذج الغربي في

العلم ومجالاته المختلفة وبمستوياته المتعددة إنسانية وتكنولوجية من اجل الوصول إلى الرقى والتماثل والتشابه في النتائج إلا نه يجب علينا او لا أجاد الأداة الرئيسية من أدوات العلم وهى اللغة

واقصد بها لغة البحث هي عربية خالصة أم هي فرنسية أم ايطالية إما انجليزية ولكن الخوف عندما تختلط المفاهيم إمام التلميذ وهى الحضارات والثقافات فلا ينشد تعليم اللغة إلا لذاتها ويعتبرها الهدف وهنا قد لا يختلف الأمر كثير عن عملية تغريب الثقافة والتي لا يزال ينشدها ويهدف إليها الغرب عن طريق الاستعمار فالحديث عن الهوية أو الذاتية مقرون بعملية الاتصال بين الثقافات ويحتم في المقام الأول الحرص والتخوف في مصير اللغة الوطنية وإذا كان تعلم اللغات الأجنبية في دائرة الاتصال الثقافي أمر هاما ورغم حاجاتنا إلى محاكاة النموذج الغربي أو قل غرينة اللغة بوسائل شئى منها إن تدخل طائعين إلى حيز التعلم والاتصال وعمدت الدول الأوروبية من بسط لنفوذ لغاتها وان حاجتنا إلي اللغات الأجنبية اشد جدا من حاجة الأمم الأوروبية لكننا عندما نشعر بالخطر يستحيكم فينا شرقا وغربا داخل الوطن العربي نفزع إلي إقامة دعوتنا الدعية إلى التعريب ومقاومة الغرب والغزو الثقافي ولكن كل ذلك يعود إلى الذات العربية لأنها ترتضى لنفسها إن تكون بلا أهمية بغيرها .

ثانياً : الشخصية العربية ونموذج العلوم الانسانية والتكنولوجية :

ان العلوم الانسانية والاجتماعية المعاصرة هي دراسات منهجية منظمة للظواهر الانسانية في بعديها الفردي والجماعي وقد اختلفوا حول مستوى الروح العلمية لفروعها في القرن19وان فروعها تتسلسل من السيسيولوجيا الى السيكولوجيا والى علم الاقتصاد والاقتصاد السياسي والى علم السكان والجغرافيا البشرية ونجدها في كل المجالات الحياة اليومية. وبرغم من تطور العلوم الانسانية والاجتماعية لم تنفصل عن الفضاء المعرفي والقيمي للفكر الغربي ونجد انها ظهرت بحدود وتشكلت في عصر التنوير وقد نشأت في خضوع تام لتصورات الغرب بعد الثورة الفرنسية.

وتعتبر العلوم الانسانية قادرة على الاصلاح وحل المشكلات والازمات التي نجمت عن التقدم التكنولوجي الحديث.

واذا تناولنا الأنثروبولوجيا كمثال نجد انها قد نشأت كعلم مستقل في القرن الماضي في الغرب وان العرب قد طرقوا كثير من موضوعاتها منذ زمن بعيد واذا تتبعنا دخول الفكر الانثروبولوجي الى العالم الغربي في العصر الحديث نجده متمثلا في تطورية الداروينية والسيارية وتأثر كثير من الدارسين العرب بأوروبا وانهم اهتموا بمرحلة الفكر الاصلاحي

وقد دخلت الانثروبولوجيا كمادة تدريسية في العالم العربي قبل الغرب منذ الثلاثينات والاربعينات وبعض الأوروبيين درسوا في جامعات العربية ، وفي القرن 19تعمقت الهوة التكنولوجية بين المجتمعات الغربية والعربية وكانت المجتمعات الغربية على وعي كبير بالأثار العسكرية والاقتصادية للتخلف التكنولوجي في بلدانهم وفي الوقت التي ادركت فيه المجتمعات العربية اهمية العلم والتكنولوجيا في المجالات العسكرية فقط .

وان كان النموذج القيمي المصري قد بدأ مسيرة البحث العلمي في مصر في العصر الحديث لاسيما عندما رافق العلماء الفرنسيون نابليون احتلاله القصير فحدثت تحولات اجتماعية واقتصادية وفنية وثقافية هامة وجاء اول تعبير عن الاهتمام بسياسة العلم في 1939 عندما انشئ" مجلس فؤاد الاول القومي للبحوث" ونجد ان الكتابات المصرية قد سبقت مؤتمر الامم المتحدة لتسخير العلم والتكنولوجيا والتنمية لأغراض التنمية عام1979 وكان تدريب القوى البشرية العلمية والفنية المصرية يجري على نطاق كبير وفي هذا شأن كانت مصر بالمقارنة احسن حالا من الهند والصين.

ومع ذلك يشعر المجتمع العربي أي الذات العربية انها في حاجة الى نموذج للعلم وهذا ما يؤكد تقرير صندوق البحوث العلمية والتكنولوجيا الصادر لعام 1978والذي يعالج المحيط العلمي التكنولوجي للعرب تحت عناوين التخلف والتبعية والتمويل

ويشير الى الذات العربية بان العجز العلمي والتكنولوجي انما هو امر طبيعي مصاحب لمجتمع لايزال موسوما بانتشار الفقر وارتفاع مستويات الامية وان من الكوادر الذين يعمل محيطهم في الغالب على سحق معنوياتهم ودفعهم للخيبة وبالجاذبية التي تمارس الهجرة عن الوطن واخيرا ان التقرير في البلدان العربية وبدون استثناء وان يكن بدرجات متفاوتة وذلك باختلاف العوامل الاجتماعية والتاريخية وهي بلدان مستهلكة لتكنولوجيا وليست صانعة لها.

الخاتمة :

ان علاقتنا بالغرب هي إشكالية او قضية متجددة في واقعنا الحديث والمعاصر لكن المراقبة الدائمة للعلاقة وفتح آفاق جديدة امام التفكير لإعادة تأمل هذه العلاقة ومحتواها والتغير الذي طرأ ويطرأ عليها ولتكن نقطة البدء في المعالجة هي البدء بأنفسنا لأننا الذات او الطرف الذي تقع عليه مهمة نقد وتأمل هذه العلاقة وذلك بحكم أننا المتضررين من هذه المعادلة منذ بداية طرحها في الوعي العربي خاصة وأن الطرف الاقوى ليس لديه ما يبرر هذه المراجعة لا نفسيا ولا عقليا. بل بالعكس تكمن مصلحته في الإبقاء على هذه المعادلة بخللها الفادح. وعليه فيجب علينا تحرير نفسنا من صورة الغرب التي رسمها عن ذاتنا وهي جد مهمة معقدة لأنها ستقتضى مقاومة طويلة فردية وجماعية نظرا لعمقها الزمني والتاريخي وطبيعتها المعرفية والنفسية.

ان العلوم الاجتماعية التي تأتي إلينا من الغرب ترسم صورا متحيزة وغير دقيقة وأن ثقافتنا كما تداخلت او تفاعلت في الماضي مع الثقافة الغربية فإنها تتداخل الان وتتفاعل مع نفس الثقافة وربما بدرجة أقوى وأخطر بحكم التطور الهائل في وسائل النقل والاتصال وبحكم الخلل الحالي الكبير في التوازن بين انتاج الثقافتين.

التدخل الحضاري حقيقة تاريخية قائمة ومستمرة ؟

علية نستخلص أهم النقاط الاتية :

أولاً : بات واضحاً منذ زمناً أن الحملة ضد الذات العربية في الغرب تتركز على جهات ثلاثة : السياسة ، النفط ، الدين ، ورغم ذلك أن العرب يملكون أدوات الرد من خلال ثلاث هيئات تعمل في تلك الجهات وهي : الجامعة العربية سياسياً ، منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول نفطياً ، منظمة المؤتمر الإسلامي الديني .

ثانياً : تكمن الاسباب في عدم تقديم صورة منصفة للذات العربية من جانب الأوروبيين شمال المتوسط الى الثقة العمياء التي يثقها الأوروبيين في المادة الثقافية وأدواتها التي تقدم بها صورة الوطن العربي إليهم وتتركز على اجهزة الاعلام المسيطرة فضلاً عن الجهل والتحيز الثقافي الذي يعود لا سباب تاريخية وسياسية ودينية .

ثالثاً : من الضروري أن تتخلى الذات العربية عن الاستفهام المطروح حول حاضر ومستقبل الثقافة العربية والذي يبدو دائماً في صورة آلية دفاعية ، بمثابة استجابة شرطية لكوارث الواقع بعلاقاته الداخلية والخارجية الذي تكون تعبيراً عن افلاس الاتساق السياسية الشمولية فيه .

رابعاً : لقد اعتمدت المحاولات الحديثة في وضع البناءات النظرية في أغلبها على واقع المجتمعات الاوروبية مما قلل من امكانية شمولية المعرفة النظرية وعالميتها وذلك لأنها رصدت العموميات وأهملت الاختلافات النوعية ، لكنة رغم وجود قواعد مشتركة ومتشابهة في الواقع الاجتماعي للمجتمعات الانسانية فلا يمكن اغفال هذه المعرفة كلياً .

خامساً : من أجل أن تحقق الذات العربية قدراً من التواصل مع غيرها عليها أن تعمل على تعميق قيم الحرية والعدل أمام الانسان العربي حيث انه لا يتحقق هذا الا من خلال الحفاظ على مؤسسات المجتمع لا بوصفها نظاماً سياسياً .

سادساً : ان اسهام العرب في بناء المعرفة في ميدان الاجتماعي وما يرتبط به ومايحتوية يعتمد على قدراتهم في دراسة واقع ظروف مجتمعاتهم وفهمها والتغييرات التي حدثت وتحدث من خلال وضع هذا كله في أطر وتعميمات علمية تؤدي الى زيادة فهمها والى زيادة فهمنا للظواهر الاجتماعية الانسانية .

اسئلة المحاضرة

السؤال الاول

((تتميز القيم الإسلامية بخصائص تميزها عن القيم في المجتمعات غير الإسلامية))

اشرحى / اشرح العبارة السابقة بالتفصيل فى ضوء دراستك لخصائص القيم الاسلامية